

(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

- ليك اللهم ليك
- في دار الهجرة
- عوداً على بدء

* * *

- من وحي الملتقى
- من ذُرا عرفات إلى سفح المكبر
- أغنية للعيد
- رسالة العيد

obeikandi.com

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .
كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى - ١٣٩٢ هـ - في المغرب الأقصى مشغولة بدراساتى القرآنية في جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .
وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع لخمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، في حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملأت الأفق بموشحات وأناشيد أرهقت شوق القاعدين ، وأنا منهم .

وأرقتى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .
وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً . . .

ثم أذن الله تعالى فهياً لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفي أيام معدودات كانت إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ الأرض » وصحبتنى مروته حتى ركبت الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من الحجاج المغاربة .

ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزادُ قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدّرت أنه يكفينى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحسب أنه ما يزال يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم قصيدته الشجية (سمراء) .

وأثار لقاءنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعتنا قبل عشرين سنة فى جدة وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بخيرٍ وبال خلى .

وفى كنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات وتتناشد الأشعار وتشاكى أشجاننا

وهوم أمتنا وتندبر عبرة أيامنا وليالينا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إليّ ليلغني متلطفاً ، أننى انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخطر على بالي وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ماجئت به معى من زاد الخبز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث . وبقى علىّ أن أتدبر حيلة للتصرف في توزيعه بوسيلة أو بأخرى وشهدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسِعَتْهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون في وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة في منى ، ويبكرون معاً في الصبح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى منى فتؤويهم أيام التشريق على رحبٍ وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين ، إن طرءوا عليها في وقت واحد ويُعييها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . . .

في كل خطوة وكل موقف ومشهد ، وجدنتى مع التاريخ في أم القرى والبيت العتيق :
مدنية العصر قد غزّت الوادى الأجرد غير ذى الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلّت محلّ النوق والجمال ،
والكهرباء أبطلت وقود الحطب ،
والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى ، مكانَ الحصى والرمال .
والمباني العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة .
ولا شىء من هذا كله ، يَمَسُّ روحَ المكان . . .
تغير الشكل والمظهر ، وبقى للمكان جوهرُ شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنا أصالته وعراقته .

والكعبة تستبدل بكسوتها كلَّ عامٍ أخرى جديدة ،
وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأفتدة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيت عبدي فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأمته .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْت واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضي عبر حقب ودهور ، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمثاً ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبينا ، وطافوا مثلنا طفناً ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى الزدلفة كما نفرنا ، ونحروا في مِني كما نحرننا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالي التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتبدل ، فيطمس جديدها معالم القديم ، ويبدُّ عمرانها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرته ، وأعوزه فيها ترجان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !

كم شيدت من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شاحخة وصروح مرمدة شاهقة ! وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضاءل دونه أهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الديني ، دهور وأحقاب موعلة في أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضاربين في مفاوز الفلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون في حياه شعائر عبادتهم التي ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرم العتيق عندما ضاقت بها امرأته السيدة سارة وأصرت على ألا يضمها وجاريتها الولود سقف بيت واحد .

في جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثرات لعلمهم يشكرون» .
 واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعى بين الصفا والمروة بحثاً
 عن قطرة ماء أو أثر لحياة في الوادي القفر الماحل .
 حوّم طائر على المكان ونبش في الأرض فانجس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ،
 وانبث الحياة في القفر : مرّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محمّماً عليه ،
 واتجهت نحوه لعلها أن الطير لا يحوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .
 وبورك مسعى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله في الحج .
 فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التي دخلت التاريخ
 الديني بهجوم أمومتها ، وأعطت « عيد الأم » عندنا قيمته ومعناه .
 وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعى ، فأفضى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً
 لربّ هذا البيت العتيق .

وامتثل الفتى لأبيه في أمر ربه صابراً لم يتردد . . .
 ثم تجلت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :
 « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا
 أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ
 يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ
 بِذَبْحٍ عَظِيمٍ . »

وتخلد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلما هلّ عيد الأضحى نخرنا الضحية في منى ،
 أوحياً نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء وطاعة وتقوى .
 والعبرة في الشعائر بالتقوى :

« لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » .
 « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .
 وبلغ الذبيح المفتدى أشده ، فأصهر إلى جرهم وتعرب فيها لتعمر مكة بذريته العرب
 العدنانية المتعربة .

وتلقى العهد مع أبيه إبراهيم :
 « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ، وعهدنا إلى
 إبراهيم وإسماعيلَ أن طهرا بيّتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

واستجابا لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :
 « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع
 العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريرتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا
 إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم
 الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

فتلك هي صلاتنا في مقام إبراهيم بعد الطواف بالكعبة في حج أو عمرة .
 ومن ذلك المأخوذ الموغل في القدم ، كان الأذان في الناس بالحج إلى بيت الله المحرم
 المطهر :

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين
 والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج
 عميق » .

وتأصلت حرمة أم القرى لموضع هذا البيت منها ، فما عرف التاريخ سواها عاصمة
 دينية للعرب في الجاهلية .

وقد غبرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليها السلام ، ارتد فيها العرب إلى
 الوثنية ، دون أن تفقد مكة حرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .
 وغلب عليهم اليقين أن مكة (لا تُقرُّ فيها ظلماً ولا بغياً . ولا يبغى فيها أحدٌ على أحد
 إلا أخرجته ، ولا يريدُها ملكٌ يستحلَّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين (١) :
 بنى فيها جرهم . فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين ، يبكيهم شاعرهم راثياً :
 كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 وهمم « تبع الجميرى » بالبيت العتيق يريد إخراجه ، فيروى أنه رمى بداء تمخض منه
 رأسه قيحاً وصديداً ، وتبيست أطرافه وأعيى الطبُّ علاجه . حتى نُصح بأن يرجع عما أراد
 بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظماً ، وكسا الكعبة وأطعم الناس ، فنجأ . .

(١) اقرأها بتفصيل في الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعها : تاريخ الطبرى ،
 وتاريخ مكة للأزرق .

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة في صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلب إليها (الرخام المجزَع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كتب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبنَ مثلها ملك كان قبلك ، ولست منتهباً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .

لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلط على أصحاب الفيل وباءً مهلكاً ، رمهم بجراثيمه طير أبابيل . فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذلك بوباء الجدري ، فيما نقل « ابن هشام » في (السيرة النبوية) . وبقى البيت العتيق في أم القرى مثابة للناس وأمناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً . وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث في تفسير لوثني أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :

« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فسخطها الله حجرتين لاعتدائهما على حُرمة الكعبة » .

وفي ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .

ويقدم التاريخ تفسيراً دينياً لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومترلته في عقيدتهم وقلوبهم ، ففيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :

« أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة » .

ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا البيت لتقربهم إليه زلفى : « ألا لله الدين الخالصُ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

o o o

وكان لمكة في الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النساء ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النساء كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التي تعتر بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنساء من قومه بنى مالك بن كنانة :
 ألسنا الناسئين على معداً شهرَ الحِلِّ نجعلها حراماً ؟
 كما افتخر « أوس بن تميم السعدى » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من
 عرفة :

لا يبرحُ الناسُ ما حَجَّوا مُعَرَّفَهُمْ حَتَّى يَقَالَ : أُحْيِزُوا آلَ صَفْوَانَا
 مَجْدُ بِنَاهُ لَنَا قَدِمًا أَوْثَلْنَا وَأُورَثُوهُ طَوَالَ الدَّهْرِ أَخْرَانَا
 وفي قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم في الموسم ، وراثته من
 جدهم « قصي بن كعب بن لؤى » المضرى العدنانى .

ويذكرون من خير السقاية ، أنها لما آلت إلى « عبد المطلب بن هاشم » - جد المصطفى
 عليه الصلاة والسلام - شقَّ عليه ما يلقى الحجيج من شح الماء . فذكر بئر زمزم التي أنقذت
 جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون
 خبر جرهم لما طمرت بئر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعثور
 على النبع المبارك المطمور . ومع طول التفكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دلَّته
 رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنته الحارث ، ليس له يومئذ ولد
 غيره . فلما همَّ بالحفر تصدَّت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أن لم يكن له
 غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة
 التي طُوِّيت زمزم تحته . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . . .

يومها ، نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، كينحرنَّ
 أحدهم عند الكعبة . وتوافق بنوه عشرة ، فتلبث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم
 « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيه إلى الوفاء لله بنذره ، فلبُّوا طائعين ، وما يدرون أيهم
 الذبيح حين خرج بهم أبوههم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً باسمه . وضرب صاحب
 القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى في نفسه ، أن لو أخطأه
 السهم . . .

وتكررت قصة القداح : همَّ الشيخ بذبح ولده ، فما إن مسَّت الشفرة منحره حتى
 قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يتبع ويورث ، أو كما
 قالت يومها :

« والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذّر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأقى بابه فيذبحه ،
فما بقاء الناس على هذا ؟ » .

وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عرّافة لهم بخير . قالت ، لما عرّفت أن الدية فيهم
عشر من الإبل :

- ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن
خرجت عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانحروها عنه وقربوها ،
فقد رضى ربكم .

وفعلوا ، فإزال القداح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى
بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح
ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . فنحروها وتُرِكَتْ لا يُصَدَّ عنها إنسان
ولا وحش .

ونجا عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الذبيح المقتدى الأول : إسماعيل ، جد قريش
والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن
عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، « وهى يومئذ أفضل فتاة فى
قريش نسباً وموضعاً »

فى عام الفيل ، وُلِدَ اليَتِيمُ الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة
الشام ودُفِنَ فى ثرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :

وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه
عبد الله هناك . وغالما الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى
مكة ، وحيداً محزوناً مضاعفَ اليَمِّ .

وفى صباحه ، شهد حِلْفَ الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء
قريش على ألا تُنْفَرِ فى مكة ظملاً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظلمه حتى ترد مظلمته .

فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنىان الكعبة الذى حسم فيه محمد
خصومة معقدة بين قبائل قريش ، أنذرت بحرب :

كانت الكعبة قد مسّتها شرارة من بحمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستاتها وأوهت

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة الأيدي لا تدرى ماذا تفعل ، تهباً من المساس ببقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنحت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل من قبط مصر ، نجار بناء . وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ماتزال تهب أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي » فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزع ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمعول على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يترصون عاقبة ما كان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل في جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

ومكثوا على الخلاف بضع ليال ، ونذر الحرب ترداد . حتى تراضوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام . وتعلقت أبصارهم بالباب في انتظار الحكم ، فكان أول من دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين ، رضينا بحكمه . وحدثوه بالأمر ، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه ، وقال للقوم من حوله : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعه جميعاً » .

فعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعّم بناءه . وانجابت الظلال عن أفق أم القرى . هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتها وللبيت العتيق مكانه وجلاله .

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القدر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو في الأميين كلمة الوحي الأولى : اقرأ . .

ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار المجوسية ، وترنمت صروح الجباية تريد أن تنفض .

ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأظل لواؤه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قلبها هذا البيت العتيق .

وتمضى الأعوام والقرون .
وتتعاقب الأجيال والعصور ،
والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج في الموسم الدورى من السنة القمرية ،
يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة
وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ،
وتخففوا من أثقال المادية التى تمتد روح الإنسان ، وتختق فيه هيامه الفطرى إلى الحق والخير
والجمال .

وأمّحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،
واستوى الملوك والرعايا ،
واستوى الأمراء والدهماء ،
واستوى الأغنياء والفقراء ،
واستوى الرؤساء والأنباع ،
فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا في هذا الحرم آية المساواة في عقيدة لا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى :
أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين في ختام رسالاته ، كل ما يثود إنسان العصر من مآسى التفرقة
العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي ، ولعنة الوثنية المادية . .

بصوت واحد ، في حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألف
وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

لبيك اللهم لبيك

لا شريك لك لبيك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

الفتح ، في السنة الثامنة للهجرة ، حافين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلى بهم في الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتتجاوب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده ،

نصر عبده ، وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، في الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفثوا في ضميره نور الإيمان « والله مُتَمَّ نوره ولو كره الكافرون » .

مِنَى :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

obeikandi.com

في دار الهجرة

«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

صدق الله العظيم

obeikandi.com

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .
صلينا الظهر في المسجد الحرام ، وحملتنا الطائرة في العصر من جدة ، فأدركنا صلاة
المغرب مع الجماعة في الحرم النبوي . وبتنا ليلتنا في جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا
أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التي لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائرة ملكية فوق
بساط ريح رُخاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة
والسلام ، من دار مبعثه في أم القرى ، إلى دار هجرته في يثرب .
أبصارنا تحديق في الطريق الصحراوي الوعر ، تلمس من علّ موضع « غارِ ثور »
بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجرُ ﷺ مع صاحبه الصديق ، ريثما تهدأ المطاردة الشرسة
من طواغيت قريش .

خرجنا إلى الغار من خوخة في ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد
مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :
« والله إنك لأحبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إليّ . ولولا أن أهلك
أخرجوني منك ، ما خرجت » .

وفي غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعدُّونَ في أثرهما ، ويلغون الغار
فيهمون باقتحامه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيجُ عنكبوت على فتحته ، وحامتان وحشيتان
وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .
فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .
وفي هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامها في الغار ، سَرَّيا مع دليلٍ ثقة أخذَ بها طريق
الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يترأى لنا من نوافذ الطائرة ، بكل مخاطره ومقاوزه والتاريخ معنا ،
يتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قُباء . .
وفي أهل المدينة ، آنسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا
هناك لاستقبال نبيهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفي أصواتهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجعُ هتاف الأنصار يوم الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمر المطاع

° ° °

المسجد النبوي يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه . الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أغدقت عليه من حبها ما لم يحظ بمثله مثوى بشر . وبذلت له من فنها ومالها ، في أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، في المشرق والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وهبى الثريات ، وفرشت رحابه بفخر البسط والسجاجيد ، نسجتْها أيدي مهرة الصنائع من الشعب الإيراني المسلم . وتبقى روح المكان في أنقى أصلاتها وعراقتها ، كأن لم تمسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ بناء هذا المسجد في الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاتُها في حى بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى العنان لناقته القصواء وهى تشق الزحام لا يدرى أحد أين يكون مقام المصطفى في دار هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بحى من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم ، وهو يتخرج من إثارة حى على آثر فيردُّ معتذراً : « خلوا سبيلَ ناقتي » . إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وثيداً تشق الزحام حتى برّكت به عند مربد هناك . فحطَّ المهاجر رحله وقام يصلى .

على ساحة هذا المربد ، بُنى المسجد النبوي : ثانی الحرمین ، ومزار المسلمین على مر الزمان . وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد : اللين والجريد والليف ، وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوجّه ويعين . حتى تمَّ البناء ، لم يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسعُ حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار النبي المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطاً متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوفة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .
 وشُدَّتْ خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنبيين عليه السلام .
 وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، في الحيرة
 وغسان واليمن ، وفي مصر والحبشة وفارس ، تعلق سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ
 والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذى لم يلبث سنا نوره
 أن كسف ضوء كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصرو فرعون ، وإمبراطورونجاشى وملك .
 وفي الأحياء اليهودية الناشئة في يثرب ، وفي مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة
 وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبي الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد
 الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن في الحث على الإنفاق في سبيل الله ،
 براً وتراحماً وتكافلاً . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » :
 وتمضى الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسوخو في العناية به والبذل له ،
 وهو هو ، بروح عراقته وجوهر شخصيته .

• • •

ليلتنا الأولى بدار الضيافة في جوار الحرم النبوى ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث
 هذه المدينة التى فُتحت بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد
 كانت إلى ماضٍ قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن
 الصراع الدائر في مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشك تحول
 في متجّه الأحداث .

قبل الهجرة بستين ، أهلٌ موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه في كل موسم ، يعرض
 الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا
 قليلاً ممن آمن به .

وبدت الجولة في أولها ، مدعاةً إلى يأس وقنوط :

سعى إلى « منى » حيث مجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ،
 فتصدى له عمه أبو لهب ، يكذّبه ويصدّ الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من منى إلى منازلها في مكة ، فأتى كندة فدعاهم إلى
 الإسلام فأبوا عليه .

وكذلك ردّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .
 ثم أتى بنى حنيفة في منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقيح عليه ردّاً منهم .
 وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر
 من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردّ المساومون :
 « أفنهدف نُحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك » .
 ومن حيث بدت الأبواب كلها موصدة هناك في وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على
 الأفق الشمالي البعيد ، تجذب إليها متجه الأحداث من دائرته المقلقة في أم القرى :
 لقي المصطفى في (العقبة) نفرًا من اليربيين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ،
 وقالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله
 بك . فسنقدم عليهم فنُدعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ،
 فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم ، ومعهم صحابي جليل من صميم
 قريش . هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موقداً من قبَلِ المصطفى عليه الصلاة
 والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين .

وتزل مصعب على أنصاري من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد
 ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبي محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .

فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حَيِّ بنى عبد الأشهل ، واجتمع
 إليهما رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمها « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ
 سيدي قومها ، وكلاهما على دين آباؤه .

وخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرّض أسيدُ
 ابن حضير على أن يقوم فيردّه وصاحبه عن الحى .

التقط ابن حضير حربته ، ثم أقبل إليها فقال متوعداً :
 « ما جاء بكما إينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعترلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفِّ

عنك ما تكره !

فركز « أسيد » حربته وجلس متكئاً عليها ، يسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زابله تقبُّضه وتجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟ وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعد بن معاذ » في جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتها فوالله ما رأيت بها بأساً ، وقد نهيتهما ، وإني لأحشى على ابن خالتك من بعض القوم . فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه في طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منها . وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :
- يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من قرابة ، مارُمتَ هذا مني . أتغشانا في ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذي قال :
« أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره ؟ » .

قال ابن معاذ : أنصفتَ وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن . وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام في وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً « فما أمسى في حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة » .

* * *

في الموسم التالي كانت بيعة العقبة الكبرى التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى . وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ بيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم في اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التي اختارها ثاني الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامي .
تقديراً لجلال الحدث الذي كان منطلق تحول حاسم وخطير في تاريخ الإسلام .

ونطوف بمعام المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :
هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بنى في الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » في السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحددت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل في كل صراع بين حق وباطل .
وذهبت بدر عبرة ومثلاً :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلة وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقا تل إلا وهو يفكر في حماية الجاه الموروث ويتق الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقا تل إلا جهاداً في سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرامته ، لا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه .

« قد كان لكم آية في فتنين التقتا فتنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لآية لأولي الأبصار » .

وهذا جبل أحد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسه وعبرته :

فيه خرجت قريش بجدها وحديدها وأحايشها ومن والاها من بني كنانة وأهل تهامة ، ثأراً لقتلاها في بدر ، ورحضاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على سفير الوادى مقابل المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لا شك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروخاً تحت مواطئ أقدام المنتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فقالوا إلى معسكر قريش التي ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لخليل المشركين التي

لاحق لها الفرصة ، فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا . .
وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرس . .

وهنا وهناك ، حيث اتجهنا وأنى أقنا ، كانت أطياف الكتاب الأولى من حزب الله ، تحف بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحيي في نفوسنا الأمل الضائع ، وتذكرنا بأجدادنا الذين شهدنا التاريخ فيه نلحى عليه فيكتب ونوجهه فيسير . .

وحان أوان الرحيل ، فودعنا الحبيب في مثواه ، وكأنا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق في الآفاق ، وأن يحملوا لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .
وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ، كما فتن من قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً :
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَنَنْتَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .
ودفونه هناك ، حيث مات في حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر .
دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي .
وعاش الرسول ﷺ ، خاتم النبيين الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ، في ليلة القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .
« سلامٌ هي حتى مطلع الفجرِ »

المدينة المنورة :

٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

obeikandi.com

عود على بدء

« إن هذه أمّتكم أمّةً واحدةً »

رحلتي هذه المرة . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أقضيها في النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشيء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لي فيه من هموم راسخة في أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتي أى برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إني عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن أتلقاه من دعوات خاصة ، أو اجتماع بالملاء الأدباء والكتاب ، راجية أن أتوه عنهم في ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن في زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتني أن الملتقى الإسلامى الكبير في الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبى للقاء إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى الزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلتقى بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس ، فتتعارف بالقلوب وإن لم تتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوهنا وإن لم تتصافح الأيدي . وتشدّ بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى في ملتقاها عند القبلة الواحدة في مهد النبوة ومترل الوحي .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عنى من حكمة الحج في تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

• • •

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدى الذى وصل إليه جهاده في مقاومة التخلف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسه من طيب الثمرات .

وكنت أتابع من بعيد ، ككاتب الشباب وهي تخرج من أعماق البادية فتقتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنني ما توقعت أن يشهد جيلي ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسيت السدود الصماء التي رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أى محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت في رحلتي الأولى : فيم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوَأد لوعيا ، والعلمُ في ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلقى .
ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لى فيما قيل : إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمن أن تسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا تملك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عفتها كانت وستظل أبداً ملك يديها ، لا تُفرض عليها من خارج . وهي في الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين » ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موءودات الوعي ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسح آدميتها فتهبط إلى دونية الدواب العجماء ، وإني لأعلم أنه الذى حرر عقولنا وضمائرنا ، وأن الله سبحانه ، من علينا بأن بعث فينا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفنى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغي أن تُتقى سداً للذرائع ، والدنيا تعرف لهؤلاء المشايخ فقهم للإسلام وجهادهم في مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناس يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش دُمية صماء بكاء عمياء البصر والبصيرة . ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . .

وتركتُ الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . .
 المدينة العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو)
 بدخول أجنحة الحرم .

ولم تسمح بدخول كتاب !

ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة في وجوه البنات ،
 فاجتزن المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ،
 يوشكن أن يتمن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجروُ عهد العاهل الراحل على الخوض
 فيه ، فتركه أمانة لعهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات في المملكة ، رياضة
 خاصة تعوض ما فات ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يوم كانت المرأة تشارك
 في صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها في
 الجاهلية والإسلام .

وفي أنحاء الجزيرة ، باديتها والحضر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل
 في كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد المعلمات يحملن أمانة القيادة الصعبة على
 الدرب الخطر ما بين متاهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكرهن تلميذات مدرسة النبوة من
 الصحايات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة في علوم
 العربية والإسلام ، وإلين كانت رحلة طلاب العلم في عصور عز المسلمين . . .
 وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ .

obeikandi.com

من وحيِ الملتقى

«وأذَانُ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ»

obeikandi.com

من ذُرّاً عرفات ، إلى سفح المكبر

في طريق إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى في محنته ، وقد بعدُ عهده بوفود الحجاج ، وحطَّ عليه الشيطان يريد ليجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسمت المفارقة بين المسجدين ، ضُربَ بينها بسورٍ باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذابُ . وفي مسمى نداء عاهل الجزيرة « خادم الحرمين » يؤذَن في وفود الموسم بالجهاد ويذكر المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفزهم لمعركة الشرف والبقاء ، فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمةٍ تولى وجهها شطره حيث تكون ؟

من فجاج الأرض حَجُّوا عابدين
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسوا ما على أرض البشر
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروق
في حمى الكعبة والبيت العتيق
والحنث هأمُ الرعايا والملوك
للذى تعذو له كلُّ الجباه
وإليه ، في سماوات علاه
رفعوا النجوى دعاءً وصلاه
« ربنا لييك إن الحمد لك »

(١)

خشع الكون لمراى المؤمنين
 مذأهلوا فى خشوع مُحْرَمِينَ
 عيْدُهُم حج وسعى وفداء
 وأمانى عمرهم هذا اللقاء
 ليلبوا ضارعين قانتين
 وحدك اللهم ياخالق نعبد
 وعلى نورك يارب محمد
 كل مسعانا لدنيا أولدين

(٢)

وعلى سفح المكبر
 عند أولى القبلتين ،
 ثالث الأقداس صنو الحرمين
 فى جوار المهدي من أرض السلام
 نشر الشيطان طاغوت الظلام
 ومضى يعوى ويزأر . . .

* * *

وتوارى القدس فى جوف الدجى
 بائس الأطلال محبوب السنى
 يسأل الأنقاض : « أين الموعد؟
 ليُطلَّ الفجر من ذاك الضباب
 أين مسرانا وأين المعبد؟ »
 ثم لارداً ، سوى رجع الصدى
 وعواء الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهدي المسهد
 غصن زيتون يتيم
 وبقايا من هشيم
 وصدى صوت بعيد يتردد
 من ذرا عرفات إلى سفح المكبر:
 « وحدهك اللهم نعيد . . »
 وعلى مسرى محمد ،
 بجوار المهدي من أرض السلام
 ينشر الشيطان طاغوت الظلام ،
 ويعر يد . .

obeikandi.com

أغنية للعيد

«إلى أمي ، في لياليها الساحرة!» .

(١)

عيدنا كان على طول المدى
بملاً الأفق بهاءً وسنى
كلما هلّ احتشدنا للقاءه
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدّونا ، والدنّى تصغى لنا :
« ربنا لبيك إن الحمد لك »

الملايينُ على مرّ الزمنِ
من حجاز وعراق ويمن
من ضفاف النيل حتى الأطلسِ
من رُبا الشام وبيت المقدسِ
كم رآها العيد في يوم مني
تلتقى روحاً وقلباً ومُنَى
بهتاف العيد يعلو في الفضاء
ربنا لبيك يانور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضبُ
يرفض الصبر ويحفوه الطربُ
جرْحُنَا يتزف من جرح الحمى
فيرد الشهدَ مرّاً علقها

عُصْبَةُ السَّفَاحِينَ أَعْدَاءَ الْبِشْرِ
 دَنَسَتْ أَرْضَ الرِّسَالَاتِ الْكُبْرَى
 شَوْهَتْ وَجْهَ الْحَيَاةِ
 مَسَخَتْ كُلَّ الْقِيَمِ
 وَاسْتَبَاحَتْ حَرَمَةَ الْإِنْسَانِ
 فِي قُدْسِ الْحَرَمِ

عِيدُنَا ثَارُ أُلُوفِ الشَّهْدَاءِ
 وَمَلَائِينَ الضَّحَايَا الْأَبْرِيَاءِ
 وَمَأْسَى اللَّاجِئِينَ الْغُرَبَاءِ
 وَبَطُولَاتِ الْجُنُودِ الشَّرَفَاءِ
 وَهَتَافِ بَدْعَاءِ الْمَصْطَفَى
 يَوْمَ عِيدِ النَّصْرِ فِي أُمِّ الْقُرَى :
 رَبَّنَا لِيَبْكُ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ .

وَهُوَ ذِكْرِي سَنَ مَضَى
 مِنْ أَحْبَابِنَا ،
 وَحَدِيثِ الْغَدِّ عَنَا ،
 لَبِينِنَا بَعْدَنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا كُنَّا هُنَا
 قَدْ لَهَوْنَا أَوْ نَسِينَا مَا بِنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا نَمْنَا عَلَى ضَمِيمِ بِنَا ،
 نَتَسَلَّى بِحِكَايَا ، مِنْ هُنَا أَوْ مِنْ هُنَا
 وَفِكَاهَاتِ الْفِتْنَا مَضَعَهَا
 نَبْعَدُ الْهَمَّ بِهَا عَنْ بَالِنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا فِي أَعْيَادِنَا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
 وكأنا لا نعي أبعادها ،
 وكأنا لا نرى آمادها

عيدنا نُأرُّ ألوف الشهداء
 وملايين الضحايا الأبرياء
 ومآسى اللاجئين الغرباء
 وبطولات الجنود الشرفاء
 وهتاف بدعاء المصطفى
 يوم عيد النصر في أم القرى :
 ربنا ليك إن الحمد لك

obeikandi.com

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

في طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس ثقل الهموم التي تخففت منها منذ حللتُ بالحمى الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، في انتظار معركة الشرف والوجود والمصير .

فكأنني سمعتهم ، في رؤياي ، يُفضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامنة إلى الفداء :

• • •

أهلنا الحجاجَ من شرق ومغرب
ياضيوف الله في أم القرى ،
وضيوف المصطفى في روض يثرب ،
سلم الله عليكم ،
وهنيئاً عيدكم ،
في حمى البيت الحرام .

• • •

أهلنا . نحن أيضاًكم وددنا .
أنا كنا هناك ،
محرمين ، طائفين عابدين
نجتلي نور الحرم ،
نرتوي من نبع زمزم
ثم نسعى زائرين ،
مرهق الشوق إلى مثنى الحبيب
صلوات الله عليه والسلام

• • •

أهلنا ،
 هذه الرحلة كانت ،
 في الصبا ملء رؤانا
 قبل أن نبليغ تكليف العقيدة
 قبل أن ندرك مغزاها فريضه
 في صبانا ، كم شجانا كل موسم
 موكب الحجاج من أهل وجيره
 ومراسيم الوداع ،
 وحشود الضارعين ،
 يسألون الركب في يوم الرحيل :
 اذكرونا في منى ،
 وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
 واذكرونا في الحرم
 واحملوا منا السلام
 للحبيب المصطفى خير الأنام

• • •

وبقيتنا في انتظار ،
 كلما قلنا متى نذهب صُحبه ؟
 قيل : صبراً ، أنتم الآن صغار
 وسيأتي دوركم ، حقق الله مناكم .

• • •

أهلنا ،
 في صبانا كم خرجنا ،
 من قرانا والبنادر
 عندما تأتي البشائر .
 للقاء العائدين ،
 بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
 وملائنا الجو شدواً
 بأغاريد الفرح ،
 وتحيات الوصول .
 وسهرنا الليل نصغى ،
 بالقلوب والعقول ،
 لحديث الحاج عن أنس القبول ،
 والمشاهد والمواقف ،
 والمناسك والشعائر
 وازدحمنا حوله نبغى القرى ،
 من هدايا وكنوز وذخائر :
 لمحة من نور مكة ،
 جرعة من ماء زمزم
 نفخة من عطر طيبة
 ثمرة من نخل يثرب
 ونقول الله أكبر ،
 ياهناه ، حقق الله مناه !
 والحبيب قد دعاه ،
 فتي ننمو ونكبر؟

• • •

رحلة كانت لنا ،
 حلم الصبا وعد الشباب ،
 قبل مأساة الهزيمة
 وكبرنا ، فعرفناها عقيدة
 عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
 حشدتنا هاهنا خمس سنين

في انتظار المعركة
وأمانينا فداء وقتال وشهاده

• • •

فاذكرونا أهلنا ،
نحن جند الله جيل المعركة
اذكرونا في منى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عنى الحبيب ،
أنا نرعى حياه ،
ونؤدى فرضنا ،
وعلى وعد اللقاء ،
• في رحاب الخلد مشوى الشهداء
قد نذرنا هدينا ،
عندما يأتي الأوان ،
يوم عيد نحونا ،
وسلاماً أهلنا حججاً مكة
ياضيوف الله في البيت الحرام
وضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وآمل . .

عرفات :

٩ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ